قصة اليهود مع خاتم المرسلين

أما عن علاقة اليهود بخاتم الأنبياء وإمام المرسلين فكانت أنكى وأشد على الرغم من المعاملة الراقية التي عاملهم الرسول ﷺ بها والتي لم يعاملهم أحد بمثلها من قبل ولا من بعد ، إلا أنهم قابلوا وفاءه لذمتهم بالغدر ، كما قابلوا إحسانه بالإساءة وهاك القصة يهود المدينة مع النبي من البداية ﷺ

اليهود يبشرون بسيدنا محمد

كان يهود المدينة في حربهم مع أعدائهم – قبل أن يبعث الله محمدا ﷺ – " يستفتحون الله ، و يدعون على الذين كفروا ويقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي ألا نصرتنا عليهم فينصرون { فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ } يريد محمدا ﷺ ولم يشكوا فيه { كَفَرُواْ بِهِ } "(١)

{ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }(البقرة : ٨٩)

{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }(الأعراف : ١٥٧)

{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة : ١٤٦)

---

(١) جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " في تفسير قوله تعالى {فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به } .

ولِمَ يكفرون به رغم أنهم يجدونه عندهم في التوارة والإنجيل ؟

إنه الحسد والبغي إنهم يريدون رسولا من بني إسرائيل يجدد لهم وعود الله بتعبيد العرب والاستيلاء على أرضهم ، فلما جاءهم رسول عربي ﷺ و بما لا تهوى أنفسهم كفروا به .

{ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ }
(البقرة : ٩٠)

مع أن ما أنزل به محمد ﷺ هو رسالة التوحيد التي نزل بها كل الأنبياء وهو مصدق لصحيح دينهم . لكنهم أصروا على أن يؤمنوا بما معهم من التوراة ويكفروا بما جاء بعدها حتى وإن كان منزلا من عند الله وصفات مَن أُرْسِل به مذكورة في كتبهم .

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنَزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }
(البقرة : ٩١)

ويَدَّعي اليهود أن دينهم هو الصحيح و ما عاداه باطل ، فلنفترض – جدلا – أنكم تؤمنون بالتوراة وأنها صحيحة و لم تُحَرَّف ولم تُبَدَّل فلم عبدتم العجل إذن ؟!

هل موسى أمركم بعبادته ؟!

أم أن هذا دأبكم مع كل رسول تكذبونه ؟

والحقيقة أنكم ظالمون لأنفسكم بعدم إيمان أسلافكم بما جاء به موسى ، وظالمون لأنفسكم بعدم إيمانكم بما جاء به محمد ﷺ .

ما أسوأ إيمانكم ! هذا إن كنتم مؤمنين أصلا .

{ وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ {٩٢} وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } (البقرة : ٩٢ ، ٩٣)

اليهود والإسلام

إنَّ كُفْر اليهود ليس جديدا عليهم فإن أي نبي يرسله الله لهم إذا أتاهم بما لا تهوى أنفسهم كذبوه أو قتلوه .

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ {٨٧} وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ }
(البقرة : ٨٧ ، ٨٨)

{ لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ {١٨١} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ {١٨٢} الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {١٨٣} بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً }
(آل عمران : ٨١ – ١٨٤)

ومع كل هذا فإن الله تعالى يأمر رسوله ﷺ أن يستمر في دعوة أهل الكتاب إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ونبذ الكفر والشرك ، فإن رفضوا فهم وما يعبدون .

{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ }
(آل عمران : ٦٤)

المجتمع الإسلامي واليهود

بين الله تعالى لنبيه وسيلة الدعوة معهم – ومع غيرهم – وهي بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن .

{ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }(النحل: ١٢٥)

فإن أبوا إلا الكفر والجدال بالباطل فالله تعالى يأمر نبيه بعدم المراء معهم حتى لا يتطور الجدال إلى خصام وجفوة وحروب ، وأمره تعالى بترك الأمور الخلافية لله يحكم فيها بحكمه العادل يوم القيامة .

{ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } (الحج : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩)

ويقرر الله تعالى أن الأمور العقدية لا إكراه فيها إنما هي علاقة بين العبد وربه .

{ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }(البقرة : ٢٥٦)

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا } (الكهف : ٢٩)

ويحذر الله تعالى من استخدام أسلوب الإكراه في الدعوة إلى دين الله .

{ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } (يونس : ٩٩)

فإن تمسكوا بدينهم فهم وما يعتقدون ، ولهم على المسلمين حسن المعاملة – إن كانوا مسالمين – و أن يكون العدل هو أساس الحكم بينهم وبين المسلمين .

{ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } (الممتحنة : ٨)

ولم يكن الأمر بإقامة العدل مع اليهود بالأمور النظرية التي لا تعرف طريقها إلى التطبيق شأن كثير من القوانين الدولية بالنسبة العرب والمسلمين بل يضرب الإسلام المثل الأعلى في الحكم بالعدل مع المخالفين للمسلمين في العقيدة ، ومع حتى الذين يضمرون له السوء ، ويتربصون به الدوائر فها هو قرآن ينزله الله تعالى ليبرئ رجلا يهوديا من تهمة رماها به أحد المسلمين وشايعه فيها بعض المسلمين عصبية .. هل هذا معقول ؟!

نعم هذا شرع الله تعالى الحق الذي لا يعرف المحاباة ولا الهوى .

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}(النساء: ٥٨)

تأمل كيف أمر الله تعالى بإقامة العدل بين جميع الناس لا فرق بين مسلم وغير مسلم وقارن هذا بما يفعله الغرب بعامة وأمريكا وحليفتها إسرائيل بخاصة فيما يخص العرب والمسلمين ؛ لتعرف الفرق .

وإليك القصة العجيبة التي تبين حرص الإسلام على إقامة العدل مع كل الناس .

أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : " كان رجل سرق درعا من حديد في زمان النبي ﷺ طرحه على يهودي، فقال اليهودي: والله ما سرقتها يا أبا القاسم ولكن طُرحت عليّ. وكان الرجل الذي سرق له جيران يبرئونه ويطرحونه على اليهودي، ويقولون: يا رسول الله إن هذا اليهودي خبيث يكفر بالله وبما جئت به، حتى مال عليه النبي ﷺ ببعض القول ، فعاتبه الله في ذلك فقال :

{ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (١)

أ بعد عدل الإسلام عدل ؟!

ينزل الله تعالى قرآنا ليبرئ فيه رجلا يهوديا من تهمة ألصقها به أحد المسلمين ، و دافع عنه – بالباطل – بعض جيرانه ، ويعاتب الله تعالى الرسول فيه !

ويستمر القرآن في الأمر بالإحسان إلى أهل الكتاب حتى بعد إصرارهم على عدم الدخول في الإسلام والتمسك بدينهم ، ويحل للمسلمين مآكلتهم وتبادل الإهداء بالأطعمة . بل يذهب الإسلام إلى ما هو أكثر من هذا حيث يحل الله تعالى زواج المسلم من الكتابية على ما للزواج من مودة ورحمة ، وحسن المعاشرة ، و ائتمان على العرض ، والأولاد .

{ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }(المائدة : ٥)

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور." في تفسير الآية .

قد أباح اللّه نكاح الكتابية، فلا بد أن تكون المصلحة في إباحتها، إذ قد يترتب على مصاهرة الكتابي مصلحة للدين وإعزاز له أو دفع للمشاكل، والقضاء على الأحقاد والضغائن، فضلاً عما في ذلك من إعلان سماحة الدين وتساهله مع المخالفين في العقيدة من أهل الكتاب، فإن الدين يبيح للرجل أن يقترن بالكتابية وهي على دينها لا يضمر عداء لهؤلاء المخالفين، ولا يبطن لهم حقداً وإنما لم يبح للمرأة أن تتزوج الكتابي لأن المرأة مهما قيل في شأنها لا يمكنها أن تقف في سبيل زوجها غالباً، فتكون مهددة بتغيير دينها، وأولادها لا محالة أن يتبعوا أباهم وهي لا تستطيع ردهم، والإسلام وإن تسامح فيما يجدد الروابط فإنه لا يمكنه التسامح فيما يخرج المسلم من دينه، أو يجعل ذريته من غير مسلمين، فهو قد أباح الكتابية للمسلم ونهاه عن إكراهها على الخروج من دينها، أما الأديان الأخرى فليس فيها هذا الضمان ولما كان الرجل قوياً في الغالب جعل أمر ضمانه هو وأولاده موكولاً لقوة إرادته، وحال بين المرأة ضعيفة الإرادة وبين تزوجها من الرجل الكتابي . (١)

وشدد النبي ﷺ في تحذيره من إيذاء أهل الكتاب بظلم أو بنقص حق أو بتكليفهم ملا يطيقون ، أو بالأخذ منهم شيئا بغير طيب نفس فقال ﷺ : "من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه [أي خصيمه] يوم القيامة " (رواه أبو داود والسيوطي في زيادة الجامع الصغير)

ولقد ساوى القرآن بين حرمة الذمي ، وحرمة المسلم في الدم ، والمال ، والعرض .

قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى :

{ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس }(المائدة: ٤٥)

" قال الكوفيون والثوري : يقتل الحر بالعبد ، والمسلم بالذمي ، واحتجوا بقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى" فعم ، وقوله : "وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس" [المائدة: ٤٥] قالوا: والذمي مع المسلم متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص وهي حرمة الدم الثابتة على التأبيد ، فإن الذمي محقون الدم على التأبيد ، والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام ، والذي يحقق ذلك

---

(١) عبد الرحمن الجزيري " لفقه على المذاهب الأربعة" ج ٤ مبحث المحرمات لاختلاف الدين .

أن المسلم يقطع – يده – بسرقة مال الذمي ، وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم ، فدل على مساواته لدمه إذ المال إنما يحرم بحرمة مالكه " (١)

وعن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما– مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " (رواه البخاري)

والمدهش أن النبي ﷺ لا يكتفي بحسن معاملة أهل الكتاب وهم أحياء فقط بل يراعي إنسانيتهم بعد الموت حتى لا يظن ظان أن الإسلام إنما كان يرمي من حسن معاملتهم وهم أحياء ترغيبهم في الدخول في الإسلام فقط فها هو النبي ﷺ يقوم لجنازة يهودي عندما مرت به ويستنكر على من ظن أن نفس اليهودي بلا حرمة قوله : " إن رسول الله ﷺ مرت به جنازة ، فقام ، فقيل : إنه يهودي ، فقال أليست نفساً ؟ " (متفق عليه)

وحسن معاملة الرسول ﷺ لليهود بدأت من أول نزوله المدينة ويتضح ذلك جليا في وثيقة المدينة التي وادعهم فيها ولقد جاء فيها .

" إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ؛ وإن ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتغُ –يهلك– إلا نفسه ، وأهل بيته وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ؛ وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ؛ وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ؛ وإن النصر للمظلوم ؛ " (٢)

هذا ما كان من أمر الإسلام ورسوله ﷺ في معاملة يهود المدينة التي اتسمت بحسن المعاملة من أول لقاء بينه وبينهم في المدينة .

اليهود يحاولون قتل النبي ﷺ

والسؤال هنا هل راعى اليهود هذه المعاملة الحسنة ؟ هل تخلوا لو لمرة واحدة في تاريخهم عن نقضهم للعهد وإثارتهم للفتن ؟

---

(١) " تفسير القرطبي " للآية الكريمة .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ، سيرة ابن هشام باب وموادعته– ﷺ– اليهود الذين كانوا بالمدينة.

اللهم لا.. فهم لن يرضوا عن المسلمين إلا إذا اتبع المسلمون دينهم وصاروا مثلهم و إلا فليثيروها فتنة وليشعلوها حربا .

{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى }(سورة البقرة آية: ١٢٠)

وها هي أفعالهم الدنيئة مع رسول الله ﷺ فقد أرادوا قتل النبي ﷺ عندما ذهب إليهم يستعينهم في دية- بموجب العهد الذي بينه وبينهم- " عن ابن عباس قال "أن عمرو بن أمية الضمري حين انصرف من بئر معونة، لقى رجلين كلابيين معهما أمان من رسول الله ﷺ فقتلهما ولم يعلم أن معهما أمانا من رسول الله ﷺ فذهب رسول الله ﷺ إلى بني النضير ومعه أبو بكر وعمر وعلي، فتلقاه بنو النضير فقالوا: مرحبا. يا أبا القاسم، لماذا جئت ؟ قال: رجل من أصحابي قتل رجلين من بني كلاب معهما أمان مني، طلب مني ديتهما، فأريد أن تعينوني. قالوا: نعم، أقعد حتى نجمع لك. فقعد تحت الحصن وأبو بكر وعمر وعلي، وقد تآمر بنو النضير أن يطرحوا عليه حجرا، فجاء جبريل فاخبره بما هموا به، فقام بمن معه، وأنزل الله { يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }(المائدة : ١١) (١)

وكرر اليهود المحاولة محاولة قتل النبي ﷺ مرة ثانية لكن هذه المرة ليس بإلقاء حجر عليه إنما بالسم " قالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه :

" يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري- عرق مرتبط بالقلب إذا انقطع مات الإنسان – من ذلك السم " (البخاري)

(وطعام خيبر) هو اللقمة التي أكلها من الشاة التي سمتها اليهودية وقدمتها إليه في غزوة خيبر فأكل منها لقمة وقال إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة وأكل معه منها بشر فمات " (٢)

---

(١) الإمام جلال الدين السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور." في تفسير الآية .
(٢) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " ج ٥ حرف الميم .

نقض اليهود لعهد النبي ﷺ

وقد نقضوا عهد رسول الله ﷺ وعاهدوا الأحزاب – سرا – كعادتهم في معاهدة الأطراف المتصارع معا فلما كفى الله تعالى المسلمين شر الأحزاب ذهب إلى اليهود وأعمل فيهم السيف ومن بقي حيا أجلاه عن المدينة وإليك قصة غدرهم وخيانتهم للعهد مع رسول الله ﷺ كما جاءت في كتب السيرة .

ذهب كعب بن الأشرف إلى مكة بعد بدر يُحرِّض أهلها على الأخذ بثأرهم والانتقام من الرسول ﷺ والمسلمين قبل أن يثبت سلطانهم وتقوى شوكتهم . ولم يكتف بذلك ، إذ عندما عاد إلى المدينة استخدم شعره في التشبيب بنساء المسلمين والخوض في أعراضهم ، ثم راح يطعن في الرسول ﷺ ويُحرِّض الناس على الخلاص منه .

وحدثت مشادة في سوق الصاغة التي كانت ليهود بني قينقاع أدَّت إلى مقتل يهودي ومسلم وأراد الرسول ﷺ تهدئة النفوس في ضوء احترام عقد الموادعة بين الطرفين ، ولكن يهود بني قينقاع رفضوا فأمر الرسول ﷺ بحصار دورهم واستمر الحصار خمسة عشر يوماً حتى أعلن اليهود استسلامهم . وقد كان من رأي المسلمين أن يقتلوهم جميعاً، وكان عددهم سبعمائة رجل، لكن الرسول قَبل ساطة عبد الله بن أبيّ وعبادة بن الصامت على أن يجلوا عن المدينة وسُمح لهم بالهجرة فخرجوا إلى أذرعات الشام، وأخذ الرسول ﷺ أموالهم وأبقى لهم ذراريهم ونساءهم.

وفي أُحُد رفض اليهود الاشتراك مع المسلمين كما يفترض العهد بين اليهود والمسلمين ، وتعللوا بأنه يوم سبت. بل كان هوى بني النضير مع المشركين. واتخذ بعضهم (مثل كعب بن الأشرف) موقفاً استفزازياً بندب قتلى بدر والتحريض على المسلمين . كما أخذ بعضهم يزيد في التشكيك والتحرش، ووجدوا تشجيعاً من المنافقين معتمدين على حلفهم مع الأوس. وقد استقبل زعيم بني النضير سلام بن مشكم أبا سفيان بن حرب عندما قدم من مكة في مائتين من أهلها وأغار على أطراف المدينة وأحرق دارين وقتل رجلين وقفل عائداً إلى مكة. وقد أطلعه ابن مشكم على أسرار المسلمين. وقام أحدهم (عمرو بن جحش) بمحاولة اغتيال الرسول ﷺ بعد عقد العهد (أي المعاهدة) بين المسلمين واليهود.

جزاء الخيانة

واعتبر الرسول ﷺ هذا التصرف دليلاً على نقضهم العهد. وكانت قريش قد بدأت تجمع جموعها للفتك بالمسلمين. ولتأمين جبهتهم الداخلية أعطاهم الرسول ﷺ إنذاراً بالرحيل عن المدينة فرفضوا وأخذوا يتحصنون ويعدون أنفسهم لحرب طويلة. وجاء ذلك على لسان زعيمهم حُييّ بن أخطب. وازداد صلف بني النضير عندما وعدهم زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بالدعم . واستمر القتال عشرين ليلة ولكن بني النضير استسلموا في نهاية الأمر فسمح لهم الرسول ﷺ بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع (حسب طلبهم) وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر، ونزل آخرون بالشام. ويُلاحَظ أن بني قريظة حلفاء بني النضير لم يمسهم سوء لأنهم أبقوا على العهد .

وكان لليهود دور كبير في خروج الأحزاب في غزوة الخندق . فبدءوا يهيِّجون ضد المسلمين واستجابت لهم جماعات (أحزاب) كثيرة فزحفت على المدينة . فحفر المسلمون خندقاً وضُرب الحصار على المدينة لمدة شهر. وخلال ذلك كان زعيم بني النضير، حييّ بن أخطب يُحرض كل قبائل العرب الذين كانوا ما يزالون على وثنيتهم ضد مُحمّد وأصحابه، وسعى جاهداً إلى أن يجعلها حرباً عامة تضم سكان شبه الجزيرة العربية من الوثنيين واليهود والمنافقين في المدينة لاستئصال شأفة الإسلام؛ فقدم إلى قريش في مكة وذكَّرها بقتلى بدر وضياع سيادتها على الطريق التجاري إلى الشام إذا ازدادت قوة المسلمين في المدينة .

وسألت قريش وفد اليهود « يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومُحمّد ، أ فديننا خيرٌ أم دينه ؟ » وأعماهم الحقد فأجابوا « بل دينكم خيرٌ من دينه وأنتم أولى بالحق منه » !

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في آيات صريحة جاء فيها :{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً {٥١} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً } (النساء ٥١ . ٥٢)

هكذا أثار اليهود من جديد ثائرة قريش ضد المسلمين ، وفعلوا ذلك أيضاً مع قبائل غطفان من قيس عيلان ومن بني مُرة ومن بني فزارة ومن أشجع ومن سليم ومن بني سعد ومن أسد وغيرهم . وأتم ذلك كله حيي بن أخطب بإغراء يهود بني قريظة

بالدخول في هذا الحلف مع الأحزاب ، ونقض عهدها مع الرسول ﷺ وعلى الرغم من أن زعيمهم كعب بن أسد تردد في أول الأمر، إلا أن حيي بن أخطب ما زال به حتى انضم لقريش وحُلفائها من يهود ووثنيين .

وكانت خطورة انضمام بني قريظة إلى هذا الحلف، أنهم كانوا يقيمون في المنطقة التي لم يمتد إليها الخندق الذي حفره المسلمون حول المدينة عندما علموا بمقدم الأحزاب، اعتماداً على أن بني قريظة تحمي هذه المنطقة وفاءً لعهدها مع الرسول ﷺومن ثم كان هذا يعني دخول الحلفاء إلى المدينة والقضاء على المسلمين بداخلها عن طريق بوابة قريظة هذه ، ولما سمع الرسول ﷺ بغدرهم أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس (لأنه كان هو وجماعته من حُلفاء بني قريظة) وسعد بن عبادة سيد الخزرج فقابلا كعب بن أسد وحذَّراه من مغبة الغدر، فسخر منهما. ونجح أحد المسلمين في زرع الشكوك بين الأحلاف ، فلما أيد اللّه تعالى الرسول والذين آمنوا معه ، وهزم الأحزاب وحده ، ورجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول اللّه ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة ، في بيت أم سلمة رضي اللّه عنها ، إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام متعجراً بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول اللّه ؟ قال ﷺ : "نعم"، قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، ثم قال: إن اللّه تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة ، فنهض رسول اللّه ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالميسر إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي اللّه عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، ثم نازلهم رسول اللّه ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) سيد الأوس رضي اللّه عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، فعند ذلك استدعاه رسول اللّه ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم، فلما أكثروا عليه قال رضي اللّه عنه: لقد آن لسعد أن تأخذه في اللّه لومة لائم، فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول اللّه ﷺ قال رسول اللّه ﷺ : "قوموا إلى سيدكم" فقام إليه المسلمون، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ

لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول اللّه ﷺ : "إن هؤلاء – وأشار إليهم – قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت" فقال رضي اللّه عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال رسول اللّه ﷺ :

" نعم" قال: وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال: "نعم"، قال: وعلى من ههنا، وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول اللّه ﷺ فقال له رسول اللّه ﷺ : "نعم"، فقال رضي اللّه عنه: إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول ﷺ : "لقد حكمت بحكم اللّه تعالى من فوق سبعة أرقعة " .

ولعل سعد بن معاذ فكَّر فيما قام به بنو النضير من نشاط ضد المسلمين بعد خروجهم من المدينة وتحريضهم لبني قريظة. وقد رأى سعد بن معاذ بنفسه إصرار بني قريظة على الخيانة ورفضهم النصح. فحكم على الرجال (أي العناصر العسكرية) بالقتل وسبي الذراري والنساء، باعتبار أن ما ارتكبوه يعادل في القانون الحديث الخيانة العظمى وإعلان الحرب .

وكانت خيبر (في أعالي الحجاز) من مراكز اليهود المهمة، وصارت ملجأ اليهود الحانقين ومركزاً للتآمر، وأخذت في تكوين كتلة من يهود القرى المجاورة كتيماء ووادي القرى ولكن دون نجاح. وكان المسلمون يدركون ذلك. وحين سالم الرسول ﷺ مكةَ في الحديبية (آخر العام السادس للهجرة)، أمر بالتهيؤ لخيبر في مطالع العام السابع للهجرة، فهي خطر عسكري من الشمال مع وجود قريش في الجنوب ولها دور في التحريض على غزوة الخندق كما حاولت التفاهم مع غطفان لمحاربة المسلمين بوعدهم بنصف تمر خيبر لعام إن انتصروا، كما جرت المفاوضات بين خيبر ويهود وادي القرى وتيماء وفدك لتكوين حلف جديد يتزعمه اليهود الآن لحرب مُحمّد وأصحابه بعد أن فشل القرشيون في ذلك .

ولم يكن من المستبعد أن يسعى يهود خيبر للاستعانة بقوى خارجية كالفرس مثلاً الذين كانت لهم مصالحهم في اليمن ، وهم ولا شك يطمعون أن يمتد نفوذهم إلى كل محطات طريق التجارة البري من اليمن إلى الشام عبر المدينة. ولكن المحاولة فشلت لسبق المسلمين في التحرك ولتخاذل غطفان. وكان ليهود خيبر مناطق حربية (النطاة والشق والكتيبة) لكل منها حصون يحتمون بها من الغارات، وفيها مخازن الغلال، أما

المزارع فخارج الحصون. وبعد حصار ومناوشات، سلم يهود خيبر على أن تُحقَن دماؤهم، واعتبر الرسول ﷺ خيبر غنيمة وقسمها، ولكنه ترك اليهود يزرعونها لعدم توافر الأيدي العاملة لديه مقابل نصف المحصول. وكان بين غنائم خيبر صحائف من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي ﷺ بتسليمها إليهم .

وبعد خيبر، خضعت بقية القرى اليهودية وسلمت للرسول ﷺ. فأرسل الرسول ﷺ إلى يهود فدك وتم الاتفاق معهم دون قتال على أن يُتركوا لزراعة الأرض ويعطوا النبي نصفها.

ثم خرج الرسول ﷺ بنفسه إلى يهود وادي القرى وهزمهم وتوصل معهم إلى اتفاق مشابه لما توصل إليه مع اليهود السابقين .

ولما سمع يهود تيماء بذلك لم ينتظروا مسيرة الرسول ﷺ إليهم بل أرسلوا إليه وقبلوا شروط المسلمين .

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}(الأعراف : ١٦٧)

أهؤلاء هم الضحية التي يتحدثون عنها ؟

أ هؤلاء من يستحقون وعد الله لإبراهيم كما يزعمون ؟

إن ما حدث لهم على مدى التاريخ – كما بينا – كان جزاء وفاقا .

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } (النحل : ١١٨)

***